الخفة والثقل مبدآن أساسيان في النظرية اللغوية العربية

(قراءة في باب الإدغام من كتاب سيبويه)

أ.د/ بشير إبرير
قسم اللغة العربية و آدابها
جامعة باجي مختار-عنابة

ملخص

الخفة والثقل *مبدآن أساسيان في النظرية اللغوية العربية؛ ومن يقرأ كتاب سيبويه؛ وبخاصة باب الإدغام الذي خصّصه لأصوات اللغة العربية، يجده مبنيا على هذين المبدئين التداوليين. يظهر ذلك في كثير من الأقوال والنصوص ومفاهيم المصطلحات الصوتية التي حرصنا على أن نقدّمها كما هي في سياقاتها النصية والمعرفية؛ من أجل وضع القارئ في الصورة الصحيحة، فلعلّه يتبيّن له ما لم يتبين من قراءتنا لهذه الأقوال والنصوص المتعلّقة بكثير من القضايا الصوتية وتأثيراتها في تأدية الخطاب، مثل: الإبدال والقلب والتخفيف والإمالة والإشمام والروم والاختلاس والإخفاء، وجميعها ظواهر صوتية – صرفية جديرة بالعناية والدراسة.*

Résumé

"El-khiffa" (le moindre effort incrémentiel) et " Ettiqual" (la charge incrémentielle) sont deux principes fondamentaux de la théorie linguistique arabe. Celui qui lit l'ouvrage de "Sibawih" (El-kitab) et surtout dans le chapitre d'El Idgham (contraction de deux consonnes en une géminée) qui l'a consacré à l'étude des phonèmes de la langue arabe, trouvera qu'il est construit sur ces deux principes pragmatiques. cela apparaît dans beaucoup des énoncés et des textes que nous avons désiré ardemment de les présenter tels quel dans leurs contextes textuels afin d'éclaircir les notions importantes des termes phonétiques, tels que :"IBDAL" (commutation)," Kálb" (Permutation), Takhfif (réduire le cout de communication), Ichmam (prononciation légère d'une voyelle) IKHFAA ; et IKHTILAS (Abrégement d'un son vocalique à le rendre totalement indistinct en tant que tel), et enfin Raoum (une presque disparition de la voyelle).

مقدمة:

أعطى سيبويه (ت 180 هـ) **للصوت اللغوي** حقّه وبوّأه مكانته الحقيقية في البحث اللغوي بصفة عامة، وفي البحث الصوتي بصفة خاصة، وأسّس نظرية لغوية تميّز بها دون غيره، واتخذ فيها أستاذه الخليل بن أحمد (100هـ- 175هـ) مرجعا أساسيا بالإحالة إليه مئات المرات في الكتاب. وتتمثّل هذه النظرية في التبدلات التركيبية في اللغة العربية. انطلق سيبويه من الإدغام في القسم الصرفي من الكتاب متحدثا عن مجموع الظواهر اللغوية والتبدلات الصوتية في ثناياه، من إبدال وقلب وتخفيف وإمالة وإشمام ورَوْم واختلاس وإخفاء وجميعها ظواهر صوتية – صرفية جديرة بالعناية والدراسة العميقة المتأنية[(1)]. و نذكر إلى جانب الخليل و سيبويه دارسين آخرين جاؤوا بعدهما مثل: الفراء (ت207هـ)، والمبرد (ت286هـ)، وابن السراج (ت316هـ)، والسيرافي (ت358هـ) واحد من أهم شرّاح سيبويه، وابن جني (ت392هـ).

تظهر القراءة المتأنية لكتاب سيبويه **عمق النظر المعرفي الابستيمولوجي** للظاهرة اللغوية، فلا يمكن سبر أغوار مفاهيم المصطلحات التي انبنى عليها الكتاب إلا من خلال انتظامها في نسيجها اللغوي بالنظر إلى ما سبقها وما

تلاها من كلمات أسهمت في إشعاعها الدلالي وتحقيقها **لهويتها اللسانية** داخل النص. وبالنظر أيضا إلى ظرفها المقامي وما يُميّزه من متغيرات وملابسات تسهم في توضيح المفهوم بدقّة وتُحقّق – بذلك – **هويته المعرفية** في مجال تخصّصه.

تبرز من خلال كل ذلك رؤية سيبويه للمجتمع وقدرته على التأمّل والسماع للطبقات الاجتماعية كيف تستعمل اللغة، واستنباط سنن العرب في كلامها، يظهر ذلك في كثير من صفحات الكتاب ونصوصه الدالة.

إنّ أهمّ ميزة في كتاب سيبويه تكمن في كون الرجل قد درس اللغة العربية في مقاماتها الاستعمالية المناسبة متّخذا من الصوت منطلقا، يقول الدكتور المكي درار: "**وإذا تتبّعنا حديث سيبويه عن وظيفة الصوت اللغوي، ألفيناه يرسي عليه مجمل القواعد اللغوية، إن لم تكن كلّها...**"(2)

فالصوت هو نبض النص في توجيه الأداء وتحسين الإلقاء، وهو الذي يُحقّق حيوية النص، ويُؤثّر في درجة إرساله وتلقّيه عند كل من المتكلم والمخاطب.

تمثل الدراسة الصوتية في كتاب سيبويه **أساس النظرية اللغوية العربية** التي جعلت التبليغ والتخاطب هدفها الرئيسي، وهذا ما يتضح من خلال القراءة العميقة للكتاب، الذي يُعدّ – في نظري – كتابًا أساسيا في ما نسميه نحن الآن في لغتنا المعاصرة "**تحليل الخطاب ولسانيات النص**".

إنّ المتأمل لباب **الإدغام**(3) "**في الكتاب يجده مبنيا على منظومة اصطلاحية مترابطة منسجمة في عقد فريد من نوعه، فقد بناه على مفهومين أساسين هما: الخفة والثقل.**"

وعليهما بنى كثيرا من المسائل اللغوية المتعلقة بالكلام العربي من حيث التداول والاستعمال صوتاً وصرفاً ونحواً وخطاباً، أظهر من خلاله دقة الاستقراء وعمق النظر السابر لأغوار الحقائق الصوتية والصرفية والنحوية في اللغة العربية، وشرحها وتبيان علا تها وأسبابها وخصوصياتها المميزة وأثرها في تحقيق البيان وتوليد طاقاته حسب ما تقتضي أحواله ومقاماته في الواقع الاجتماعي.

إنّ المسألة لا تتعلّق بالمستوى الصوتي فحسب؛ وإنّما يظهر النظر الابستمولوجي للنظرية اللغوية العربية في مختلف أبعادها **أنّ طلب الخفّة وتجنّب الثقل** مبدآن أساسيان فيها، ولذلك كان الاسم على رأس المقولات النحوية في الكتاب، وفيما يتعلّق بالوظائف الإعرابية – كما يرى كل من حافيظ إسماعيلي علوي وامحمد الملاخ – فإنّ إسناد الأولية للفاعلية أو للابتداء من بين الأمور المشتركة بين جل النحاة العرب القدامى، فإذا أسندت **للابتداء** كان النحو قائماً على أساس هذا التحديد التنظيمي. كذلك اختلف نحو سيبويه عن نحو الزمخشري فالأوّل يُؤسّس على أولية الابتداء، والثاني على أوليّة الفاعلية(4).

وقد أشار في هذا الشأن الدكتور إدريس مقبول إلى أنّ سيبويه ينطلق في تصوّره للاسم والفعل والصفة من ترتيب تراعى فيه أولوية الأسماء ثم بعدها الصفات فالأفعال، وليس ذلك مجرد تصورات فارغة بل إنّ التزام هذا الترتيب يتجاوب بعمق مع التصور الديني العقدي لأسماء الله تعالى وأفعاله؛ فالأسماء هي التي تدلّ على الذات، والصفات تدلّ على أحوال اختلف حولها المتكلمون هل هي عين الذات أم غيرها، ثم تأتي الأفعال(5).

ولما كان الاسم أقلّ **ثقلا** وأكثر **خفّة** من الفعل في أداء الخطاب جعله سيبويه قبل الفعل والفعل قبل الحرف؛ لأنّ الفعل يحتوي الحدث والزمان، ولذلك لا يقبل الحركات الإعرابية، ولأنّ الاسم أخفّ من الفعل أمكنه تلقّي الحركات الإعرابية، فكان أشدّ تمكنا، والدليل الآخر على خفته هو تعيينه لمدلول واحد(6).

جاء في الكتاب: "**واعلم أنّ بعض الكلام أثقل من بعض؛ فالأفعال أثقل من الأسماء لأنّ الأسماء هي الأولى، وهي أشدّ تمكنا فمن ثمّ لم يلحقها تنوين ولحقها الجزم والسكون، وإنما هي من الأسماء [أي الأفعال المشتقة**

من الأسماء، فَقَتَلَ مشتق من القتل]. ألا ترى أنّ الفعل لا بد له من الاسم وإلاّ لم يكن كلاما، والاسم قد يستغني عن الفعل، تقول: الله إلهنا وعبد الله أخونا."[7]

وهكذا فإنّ "**الاسم عند سيبويه أبدا له من القوّة ما ليس لغيره**" [8].

إنّ **مبدأ الخفّة** مطلب أساسي في تنظيم الكَلام عند سيبويه، لأنّ الخفّة على اللسان تساعد على التبليغ بسهولة ويسر وعلم كل من المتكلم والمخاطب بخصائص الكلام العربي النحوية والصرفية والصوتية يسهل فهم الخطاب الموجه من المتكلم نحو المخاطب بحسب أحوال التخاطب **Les situations communicationnelles** مثل حالات الإغراء والتحذير والتعجب ... وغيرها؛ فهي تحتاج إلى تنظيم مخصوص وكذلك إلى تنظيم صوتي–صرفي مخصوص، يبرز ذلك في مستويات التأدية والمشافهة بحسب ما تقتضيه أنشطة الحياة اليومية.

يبين هذا برأي الدكتور زكي نجيب محمود، "**الصلة الحميمة الوثيقة بين بحوث الباحثين وبين حياة الناس العملية، حتى في مثل هذا المجال اللغوي الذي قد يبدو لعين القارئ العربي اليوم، وكأنه مبتور الصلة عن تلك الحياة، جرياً منه على ما قد أَلِفَه في عصره هذا من بعد الشقة في كثير جدا من الحالات بين رجال اللغة من جهة، وضروب النشاط العملي من ناحية أخرى...**"[9].

تبرز رؤية سيبويه العميقة للمجتمع، ونظره اللغوي الثاقب لكيفيات التداول والاستعمال اللغوي مما له علاقة باللسانيات الاجتماعية والتداولية في ثقافتنا المعاصرة؛ فالرجل لم يكن يهتم بالنصب والجر والضم، وإنما كان مدركا إدراكاً كاملا لما يدور بين المتكلم والمخاطب من حديث له خصائص **تظهرها المشافهة** ومقامات التخاطب وحيوية الاستعمال، وهذا الذي استغلق على كثير غيره. وبهذا "**فالنحو... هو محاولة للبرهنة على فرضية مؤداها أنّ اللغة تنتج أشكالا لسانية أكثر خفة وتنفر من الاستثقال**"[10].

إنّ الخفة والثقل في الكلام العربي، ظاهرة لغوية صوتية صرفية نحوية في الآن نفسه متعلقة بظواهر التأدية والمشافهة وكيفياتها المختلفة وتنوعاتها اللغوية "**في داخل رقعة الفصاحة التي كانت في أغلبها صوتية وحتى الصرفية منها كانت كذلك؛ لأنّ اختلاف الأوزان مع اتفاق المعنى لا يمكن أن يعود سببه إلاّ إلى اختلاف المعنى الصوتي**"[11]. وهذا له علاقة وثقى بالفصاحة.

كما تحدّث سيبويه عن ظاهرة أخرى متعلقة بظواهر الخفة في الكلام العربي **وهي الإمالة Inclinaison**[12] التي تعني كل تركيب حركي يتجه فيه المتكلم من حركة إلى حركة أخرى؛ أي أن يميل المتحدّث بالحركة الأولى إلى الحركة الثانية؛ كأن تُمال الفتحة نحو الكسرة أو الفتحة نحو الضمة[13].

قال سيبويه: "**وإنما أمالوها للكسرة التي بعدها أرادوا أن يقرّبوها منها كما قرّبوا في الإدغام الصاد إلى الزاي حيث قالوا: صَدَرَ فجعلوها بين الزاي والصاد، فقربها من الزاي والصاد التماس الخفة؛ فالألف تُمال إذا كان بعدها حرف مكسور وذلك قولك: عابِد وعالِم، ومساجد ومفاتيح وعذافر وهابيل**"[14].

وكذلك: "**مما يُميلون ألفه كل شيء من بنات الياء والواو إذا كانت عينه مفتوحة**"[15].

إنّ الإمالة ظاهرة لغوية متعلقة بالاستعمال وكيفيّات الأداء وطرائق التداول بين المحدثين، ولذلك خصّها سيبويه بنصيب وافر من الحديث في الكتاب؛ وبخاصة في الجزء الرابع منه، وهي أيضا من ظواهر الخفة والاختزال وتجنب الاستثقال في الكلام العربي، ولها علاقة بظواهر صوتية أخرى تحدّث عنها سيبويه في الكتاب وهو يبحث عن كيفيات إحداث الكلام.

ولا بد من الملاحظة أنّ سيبويه عندما يتحدث عن مصطلح أو مفهوم أو ظاهرة صوتية، لا يتحدّث عنها منفردة وحدها معزولة عن غيرها من الظواهر الأخرى؛ وإنما يدرسها مدرجة في موضعها من السياق اللغوي الذي

انتظمت فيه، وفي مقامها التخاطبي الذي استعملت فيه، ينسجم ذلك مع تعريفه الإجرائي الذي تجاوز به العناصر اللغوية منفردة من صوتٍ أو حرف وصيغة صرفية وجملة إلى وحدة خطابية شاملة تتفاعل فيها هذه العناصر مجتمعة بخصوصياتها المختلفة لتُحقّق أهمّ عنصر من عناصر الكلام وهو: **الإفادة Informativité**، وهذه الوحدة الخطابية هي "**الكلام المستغني الذي يحسن السكوت عليه**"(16).

بناء على هذا تكون الظواهر الصوتية المختلفة هي نبض الخطاب وحركيّته ونشاطه في الربط بين المتخاطبين بما يجعل **الكلام خفيفا قليل المونة** حسب ما تقتضيه التأدية الطبيعية العادية. فيوجد مستويان من الاستعمال اللغوي هما: **المستوى الاسترسالي** الذي تقتضيه مقامات الأُنس، و**المستوى الإجلالي الترتيلي** الذي تقتضيه مقامات الحرمة.

وإنّ الواقع الحقيقي برأي الأستاذ عبد الرحمن الحاج صالح، الذي كانت عليه اللغة العربية في عهد الفصاحة العفوية يختلف اختلافا كبيرا عمّا هو عليه في زماننا هذا... فقد كان العرب في مخاطبتهم العادية يختزلون ويحذفون ويدغمون ويختلسون ويُسمى ذلك **الإدراج** وجاء ذلك أيضا في القراءات القرآنية المشهورة وغيرها، وكل ذلك كان له مقابل وهو الإتمام والتحقيق والبيان وفي القرآن الترتيل(17).

ويمكن أن يذهب بنا الحديث عن الإمالة إلى ظواهر أخرى متعلقة بها وهي: **المشاكلة أو التقريب** وتسمى أيضا **المماثلة Assimilation وهي في اللغة** تعني كما جاء في لسان العرب لابن منظور (ت 711هـ) في مادة (م،ث،ل): "**هذا مِثْلُه ومَثَلُه كما يقول شِبْهُه وشَبَهُه، قال ابن بري: وأمّا المماثلة فلا تكون إلاّ في المتفقين... والمثل الشبه، يقول: مِثْلٌ ومَثَلٌ، وشِبْهٌ وشَبَهٌ بمعنى واحدٌ**"(18).

وأما من **الناحية الاصطلاحية** فتعني "**التعديلات التكييفية للصوت حين مجاورته للأصوات الأخرى**"(19).

وتُعد المماثلة من الظواهر اللغوية الصوتية الضاربة بجذورها في القدم موزعة على ظواهر أخرى مثل: الإبدال والإعلال والإمالة... وهي أيضا من ظواهر التأدية وتحقيقها في الكلام العربي.

قال سيبويه: "**فأما الذي يضارع به الحرف من مخرجه فالصاد الساكنة، إذا كانت بعدها دال، وذلك نحو: مصدر وأصدر الميل بالصاد إلى الزاي، وسمعنا العرب الفصحاء يجعلونها زايا خالصة، فإن كانت في موضع الصاد وكانت ساكنة لم يجز إلا الإبدال إذا أردت التقريب، وذلك قولك في التسدير = التزدير،وفي يسدِل ثوبه = يزدِل ثوبه**"(20).

ويكثر التشاكل الصوتي في كل سياقات العربية الفصحى المنطوقة العفوية عند تماثل الحرفين في الإدغام. وقد ذكر اللغويون أمثلة كثيرة في ذلك وكذا الشأن بالنسبة لعلماء القراءات وذلك مثل: مَنْ بدا لك = مَمْبدا لك. والعنبر= العمبر، واصحب مطرا = اصحمّطرا واضبط دُلما = اضبطّلما... وجملة مثل: ذهبت سلمى، وقد سمعتُ، كان ينطقها العرب في مقام أنس: ذهبسّلمى، وقسَّمعتُ. كل هذه الألفاظ هي من كلام العرب الموثوق بعربيتهم وقد وردت في كتاب سيبويه(21).

إنّ هذه التنوّعات الصوتية للحرف الواحد في تأدية الكلام كثيرة الورود في السياقات الاستعمالية للغة وهي التي تقابل في اللغة الفرنسية الألفونات **Les Allophones**(22) .

وإذا كانت هنالك حروف مستحسنة للإمالة فإنّ هناك حروفا أخرى تمنعها الإمالة وهي كما جاء في الكتاب: **الحروف المستعلية** "**فالحروف التي تمنعها الإمالة هذه السبعة: الصاد والضاد والطاء والظاء والغين والقاف والخاء. إذا كان كل حرف منها قبل الألف والألف التي تليه، وذلك قولك: قاعد وغائب وصائد، وطائف وضامن، وظالم. وإنّما مَنعت هذه الحروف الإمالة لأنّها حروف مستعلية إلى الحنك الأعلى، والألف إذا خرجت من**

موضعها استعلت إلى الحنك الأعلى، فلما كانت مع هذه الحروف المستعلية غلبت الكسرة عليها في مساجد"[23].

ورد في النص عدّة مصطلحات صوتية هي الحروف المستعلية –الحنك الأعلى– الكسرة التي تغلب على الألف إذا استعلت إلى الحنك الأعلى مع الحروف المذكورة سابقا. ويُعد هذا من خصائص اللغة العربية وأسرارها التي كثيرا ما تخفى علينا فلا ندرك كنهها؛ **فالإمالة** إذا لا تتمّ اعتباطا وإنّما تتمّ بالنظر إلى ما تقبله اللغة العربية من الناحية الصوتية؛ "فإذا خرجت الألف من موضعها استعلت إلى الحنك الأعلى وغلبت الكسرة عليها." فهو وصف علمي دقيق من سيبويه واستقراء لدقائق اللغة العربية المؤداة في الواقع الاجتماعي.

إنّ **الاستعلاء** صفة من صفات الأصوات العربية وهو يقابل **الاستفال**؛ فهما صفتان متضادتان، وإذا كان الاستفال يعني من الناحية اللغوية الانخفاض ومن حيث الاصطلاح انحطاط اللسان على الفك العلوي عند النطق بالحرف، فإنّ الاستعلاء معناه الارتفاع واصطلاحا ارتفاع اللسان للفك العلوي عند النطق بالحرف فيرتفع الصوت، ولذا سُميت حروفاً مستعلية.

وتتميّز حروف الاستعلاء بكونها **مفخمة** كلها، بينما حروف الاستفال **مرقّقة** إلا الراء واللام[24].

- الانحدار والإصعاد:

تطرّق سيبويه أيضا إلى مسألة صوتية أخرى لها علاقة بظواهر الخفّة وتجنّب الاستثقال وهي: الانحدار والإصعاد. فقال: "فإذا كان حرف من هذه الحروف قبل الألف بحرف وكان مكسوراً، فإنّه لا يمنع الألف من الإمالة. وليس بمنزلة ما يكون بعد الألف، لأنّهم يضعون ألسنتهم في موضع المستعلية ثم يصوّبون ألسنتهم **فالانحدار أخف عليهم من الإصعاد**؛ ألا تراهم قالوا: ضقت وصقت وصويق بما كان يثقل عليهم...

وقالوا: قسوت وقست فلم يحولوا السين لأنّهم انحدروا فكان الانحدار أخف عليهم من الاستعلاء من أن يصعدوا من حال السفل وذلك قولهم: الضعاف والخفاف والصعاب والطناب والضفاف والقباب والغلاب وهو في معنى المغالبة."[25]

إنّ الانحدار في هذا النص غير الإصعاد وغير الاستعلاء في النص السابق، وهو أخف منهما على اللسان في عملية التلفظ بالصوت في مقام إرساله. فالانحدار والاستفال يعنيان الخفّة ويقابلان الاستعلاء والإصعاد، اللذين يعنيان الثقل، فتوجد بينهما خاصية تضاد يظهرها إيقاع النص أو الكلام.

ويواصل سيبويه الحديث عن الخفة والثقل فيعقد بابا آخر يعد مهما في الخطاب العربي سمّاه: "**باب ما يسكن استخفافا وهو في الأصل متحرّك**" فقال فيه:

"**وذلك قولهم في فَخِذٍ فَخْذٌ وفي كَبِدٍ كَبْدٌ، وفي عَضُدٍ عَضْدٌ، وفي الرَّجُلِ رَجْلٌ، وفي كَرُم الرجل كَرْمٌ، وفي عَلِمَ عَلْمَ وهو لغة بكر بن وائل وأناس كثيرين من بني تميم**"[26].

فعندما نتأمّل هذا النص المهم لسيبويه نجده يتعلق بلغة التخاطب العفوية ومميزاتها كما تحدث بها أهل الأداء ودوّنها اللغويون العرب القدامى، ولذلك فهو يقدّم الأمثلة كما سمعها من أفواه أصحابها وهم يؤدونها في حال خطابية محدّدة لها خصوصياتها[27] فيشير إلى لغة بكر بن وائل التي تسكن الحرف الثاني كما في الأمثلة التي أوردها.

ويواصل قائلا: "**وإنّما حملهم أنّهم كرهوا أن يرفعوا [ألسنتهم] عن المفتوح إلى المكسور والمفتوح أخف عليهم فكرهوا أن ينتقلوا من الأخف إلى الأثقل.**

وكذلك الأمر إذا تتابعت الضمتان فإنّهم يخففون أيضا، كرهوا ذلك كما كرهوا الواوين وإنّما الضمتان من الواوين.. وذلك قولك:الرُّسْلُ بدلا من الرُّسُلُ، والعُنْقُ بدلا من العُنُقِ، وكما كرهوا الضمتين فقد كرهوا توالي الكسرتين؛ لأنّ الكسرة من الياء، وإذا توالت الكسرتان حدث الاستثقال مثل:إبِلٌ، إبْلٌ.

وأمّا ما توالت فيه الفتحتان فإنّهم لا يسكنون منه؛ لأنّ الفتح أخف عليهم من الضم والكسر. كما أنّ الألف أخف من الواو والياء"[28].

إنّ العرب لا تبدأ بساكن ولا تقف على متحرّك كما هو معروف وتسقط الحركة والتنوين في أقل سكتة ولا سبيل إلى إيجاد اتصال مستمر في الكلام لا وقف فيه، وقد كانت قبيلة ربيعة تقف بالسكون على المنصوب نفسه[29].

وهذا الأمر المتعلق بالمستوى العفوي من الفصحى قد استغلق على الكثير من المتأخرين والمتحدثين باللغة العربية في عصرنا وبخاصة في الحياة التعليمية؛ إذ كثيرا ما يركّزون على الإعراب والتلفظ بجميع الحركات بل ويخطئون كل من لم يظهرها في كلامه وقد أدّى هذا – للأسف الشديد – إلى نفور المتعلمين من العربية شعورا منهم بصعوبتها. أورد في هذا الشأن الأستاذ عبد الرحمن الحاج صالح النص الآتي لأبي العيناء: "**ما رأيت مثل الأصمعي قط، أنشد بيتا من الشعر فاختلس الإعراب. ثم قال: سمعت أبا عمرو بن العلاء يقول: كلامُ العرب الدَّرْجُ. وحدّثني عبد الله بن سوار أنّ أباه قال: العرب تجتاز بالإعراب اجتيازا.**

وحدّثني عيسى بن عمر أنّ ابن أبي إسحاق قال: العرب ترفرف على الإعراب ولا تتفيهق فيه. وسمعت يونس يقول: العرب تشامُّ الإعراب ولا تحقّقه، وسمعت الخشخاش بن الحباب يقول: إعراب العرب الخطف والحذف"[30].

وإذا تأمّلنا في هذه اللطائف التي أوردها أبو العيناء، فإنّنا نجدها قد احتوت على بُعْدٍ وظيفي تداولي للغة العربية واضح، يراعي فاعلية التواصل ونفع المؤانسة والتخاطب فيما تقتضيه الحاجات اليومية من تعبير مباشر عفوي لا يتنافى مع الفصاحة.

وليس مثلما هو شائع عندنا اليوم من اهتمام متزايد بالإعراب أدّى إلى التأثير على اللغة العربية لكي تصبح لغة تداول وحياة يومية وعاق حركتها في ذلك. فمثلا؛ إذا لم يظهر المتعلّم أو المتحدّث الحركة عند النطق بها في الجملة الآتية خطّؤوه. ذهب محمّدٌ إلى المدرسةِ، فلا بد في رأيهم أن يظهر الكسرة في آخر الكلمة؛ وهذا يخالف القاعدة العربية المشهورة التي أشرنا إليها سابقا:

العرب لا تبدأ بساكن ولا تقف على متحرّك لأنّ الوقوف على المتحرّك يستدعي إكمال الكلام كما في المثال السابق ذهب محمد إلى المدرسة، فلا بدّ أن نواصل الكلام فنقول مثلا: المدرسةِ البعيدة أو القريبة أو الجميلة[31].

إنّ هذا المستوى المأنوس من اللغة العربية الذي يُظهر تداولها واستعمالها في الواقع الاجتماعي المتعلّق بمقتضيات الحياة ظل مستبعداً من التعليم الأمر الذي أدّى إلى إبعاد اللغة العربية عن أداء الوظائف الحيوية مما تتطلّبه الوقائع الاجتماعية والاقتصادية.

وكل هذه الخصائص المتعلقة باللغة العربية تظهرها المشافهة ومن ذلك خاصية التقاء الساكنين؛ "**وإذا حذفوا ألف الوصل ههنا بعد الساكن لأنّ من كلامهم أن يحذف وهو بعد غير ساكن حيث لم يكن ليلتقي ساكنان جعلوا هذا سبيلها ليفرّقوا بينها وبين الألف المقطوعة، فجملة هذا الباب في التحرك أن يكون الساكن الأول مكسورا، وذلك قولك: اضربِ ابنك، واكرمِ الرجل، واذهبِ اذهب، و'قل هو الله أحدُ اِلله': لأنّ التنوين ساكن فصار بمنزلة "باء" اضربْ ونحو ذلك**"[32].

وهكذا فإنّ التقاء الساكنين في الكلام العربي يؤدي إلى التكلف فيه ويجعله ثقيلا، فتم كسر الساكن الأول ليؤدَّى بسهولة ويسر وتحصل فائدته لدى المخاطَب و" قد قال علي بن عيسى الرماني في شرحه لكتاب سيبويه: "**لا يتكلم بحرف واحد حتى يوصل الكلام ببعضه فالوصل هو الأصل في الكلام**"(33).

ومخافة الالتباس حذفوا الياء التي قبلها كسرة مثل قولك: "**هو يرمي الرجلَ ويقضي الحقَّ، وأنت تريد يقضي ويرمي، كرهوا الكسر كما كرهوا الجر في قاضٍ والضم فيه كما كرهوا الرفع فيه ولم يكونوا ليفتحوا فيلتبس بالنصب؛ لأنّ سبيل هذا أن يكسر، فحذفوا حيث لم يخافوا التباسا**"(34). وهذا فيه نشدان للوضوح وتسهيل للفهم.

إنّ الفتحة والكسرة والضمة "**يلحقن الحرف ليوصل إلى المتكلم به**" فهن زوائد كما زعم الخليل، والبناء هو الساكن الذي لا زيادة فيه فالفتحة من الألف والكسرة من الياء والضمة من الواو(35).

إنّ الحركة والسكون مفهومان عربيان أصيلان في التراث اللغوي العربي منذ الخليل بن أحمد الذي أنار للذين جاؤوا بعده "**الطريق ووضّح لهم المسالك ليسيروا على هديه مقتفين أثره**"(36).

وقد فرّق العلماء العرب القدامى بين مظهرين من التسلسل الكلامي هما: مظهر يتعلّق بالصوت باعتباره ظاهرة سمعية، ومظهر يتعلق به باعتباره ظاهرة حركية في كيفية تسلسله تتضح من خلالها وظيفة الحركة باعتبارها مصوتاً في السلسلة الكلامية وفي الانتقال من حرف إلى حرف أو من مخرج إلى مخرج آخر، إنّ المقصود بالحركة عند الخليل – الحركة العضوية الهوائية التي تُحْدِثُ الحرفَ من جهة وتمكن من الانتقال من مخرج إلى مخرج آخر من جهة ثانية.

وقد قال الرماني في شرح الكتاب متبعا أثر الخليل قبله "**يتوصل بالحركة إلى النطق بالحرف ولا يتوصل بالحرف إلى النطق بالحركة**"(37) والمقصود بالحرف هنا الصامت أو حرف المد وقال أيضا: لأنّ الحركة تمكن من إخراج الحرف والسكون لا يمكن من ذلك(38).

وهذا هو المقصود من كلام سيبويه السابق وهو يتحدث عن الفتحة والكسرة و الضمة "**وهن يلحقن بالحرف ليوصل المتكلم به**"(39).

ووظيفة الحركة أساسية في **إدراج الكلام** بلغة الخليل أو **وصل الكلام** بلغة سيبويه ومن جاء بعده.

وليس الإدراج أو الوصل مجرد تعاقب للأصوات، وكل هذا يجعلنا نفهم لماذا فرّق الخليل بين الجرس والصرف.. فأما الجرس فهو فهم الصوت في سكون الحرف **(كما تسمعه الأذن)**، وأما الصرف فهو حركة الحرف(40).

لقد بنيت النظرية الصوتية العربية على هذه الرؤية الحركية نظرا للدور الوظيفي الذي تؤديه الحركة في الكلام العربي، فهو يمكّن من إحداث الحروف ومن التنقل بين مخارجها. وكل ذلك يرتبط بظواهر الخفة والثقل في الكلام العربي؛ مثل القلب والإبدال والوقف والتضعيف والإشمام والرَّوْم والإخفاء والاختلاس.

وتؤدي الحركة في كل هذه الظواهر دوراً رئيسيا يرتبط بمقاصد المتكلم وأغراضه من الخطاب، فيُوقِف لأغراض ويُشِمُّ لأغراض ويروم لأغراض، ويُضعَّف لأغراض، ويشبعون ويختلسون ويُخفون لأغراض يؤمونها.

نقرأ لسيبويه نصوصا عديدة ضمّنها باب الإدغام؛ من ذلك هذا النص الذي تحدّث فيه عن الإشمام والرَّوْم والتضعيف.

"**فأمّا الذين أشمّوا فأرادوا أن يفرقوا بين ما يلزمه التحريك في الوصل وبين ما يلزمه الإسكان على كل حال، وأمّا الذين لم يُشمّوا فقد علموا أنّهم لا يقفون أبدا إلا عند حرف ساكن، فلما سكن في الوقف جعلوه بمنزلة ما يسكن على كل حال؛ لأنّه وافقه في هذا الموضع.**

وأمّا الذين راموا الحركة فإنّهم دعاهم إلى ذلك الحرص على أن يخرجوها من حال ما لزمه إسكان على كل حال وأن يُعلَموا أنّ حالها عندهم ليس كحال ما سَكن على كل حال. وذلك أراد الذين أشمّوا، إلا أنّ هؤلاء أشدّ توكيدا.

وأما الذين ضاعفوا فهم أشدّ توكيدا، أرادوا أن يجيئوا بحرف لا يكون الذي بعده متحركاً لأنّه لا يلتقي ساكنان فهم أشدّ مبالغة وأجمع، لأنّك لو لم تُشمَّ كنت قد أعلمت أنها متحركة"[41].

يظهر من النص جملة من المصطلحات منها:

– **الإشمام:** وهو عبارة عن الإشارة إلى الحركة من غير تصويت، وقيل أن تجعل شفتيك على صورتهما وكلاهما واحد ويختص بالضمة سواء أكانت حركة إعراب أم بناء إذا كانت لازمة[42].

ويرتبط بمسألة مهمّة وهي معرفة ما يلزمه التحريك في الوصل وبين ما يلزمه الإسكان؛ فإذا لزم التحريك أشمّوا وإذا لزم الإسكان لم يشمّوا.

ولكل ذلك – كما جاء في الكتاب – "علامات، فللإشمام نقطة وللذي أجري مجرى الجزم والإسكان الخاء، ولرَوْم الحركة خط بين يدي الحرف وللتضعيف الشين، فالإشمام قولك: هذا خالدٌ وهذا خَرَجٌ وهذا يجعلٌ.

وأما الذي أجري مجرى الإسكان والجزم فقولك: هذا مَخْلدْ، وخَالدْ، وهو جعَلْ.

وأمّا الذين راموا الحركة فهم الذين قالوا: "هذا عُمَرْ ، وهذا أَحْمَدْ ، كأنّه يريد رفع لسانه.. حدثنا بذلك عن العرب الخليل وأبو الخطاب. وحدثنا عن الخليل عن العرب بغير الإشمام وإجراء الساكن، وأما التضعيف فقولك: خالدْش، وهو يجعلْش، وهذا فرَجْش"[43].

يتبين لنا من هذه النصوص أنّ المسألة الأساسية تتعلّق بكيفيات الأداء وقواعد التلفظ أو التحدث وما يحتاجه من خفة؛ لأنّ ذلك ينسجم مع مقامات التداول، ويحقق نفع الحديث والمحادثة بين المتخاطبين. يبرز كل هذا في الأداء الصوتي المنطوق للغة الذي نلاحظ من خلاله مدى الانسجام والترابط في التلسل الصوتي المكوّن للمعاني اللغوية والرابط بينها وبين المعاني الاصطلاحية للظواهر اللغوية. فالواو والياء كما جاء في الكتاب:

"بمنزلة الحروف التي تتدانى في المخرج لكثرة استعمالهم إياها وأنها لا تخلو الحروف منها ومن الألف أو بعضهن، فكان العمل من وجه واحد أخف عليهم، كما أنّ رفع اللسان من موضع واحد أخف عليهم في الإدغام، وكما أنهم أدنوا الحرف من الحرف كان أخف عليهم نحو قولهم: ازدان، واصطبر، فهذه قصة الواو والياء. فإذا كانتا ساكنين وقبلهما فتحة مثل موعد وموقف لم تقلب ألفا لخفة الفتحة والألف عليهم. ألا تراهم يفرون إليها"[44].

فتوجد إذا مفاضلة بين الخفة والثقل في عملية التحدث تفرضها مقامات الاستعمال، فإذا كانت العبارة خفيفة على اللسان في نطقها سهل إدراكها وفهمها وظهرت كما يرى الدكتور طه عبد الرحمن – أسباب وصلها بالبنية العملية لمجال التداول بما يخرجها إلى حيز التطبيق؛ بمعنى أنّ العبارة المقربة هي مقصود ميسر أصلا للمخاطب حتى يعمل به أو وفقه[45].

يتبين لنا من كل هذا كأن سيبويه عالم من علماء اللسانيات الاجتماعية يدرس الترابطات الحاصلة بين استعمال اللغة والبنية الاجتماعية، باعتبار الاستعمال اللغوي ظاهرة اجتماعية، فهنالك تأثير من البنية الاجتماعية في الطريقة التي يتكلم بها الناس وكيف تتعالق تنوعات اللغة ونماذج الاستعمال بالخصائص الاجتماعية مثل الطبقة

والجنس والسن، فتوجد أشكال للخطاب وتنوعاته تؤدي وظائفها المختلفة داخل المجتمع وتربط حبل التواصل بين أفراده وجماعاته[46].

وقد حفل كتاب سيبويه بكثير من الاستعمالات اللغوية المؤكدة للترابط بين اللغة والمجتمع نذكر منها – على سبيل التمثيل لا الحصر –: "**وهي لغة بكر بن وائل وأناس كثيرين من بني تميم**"[47].

و"**هي من كلام العرب الموثوق بعربيتهم**"[48]. و"**سمعنا العرب الفصحاء يجعلونها زايا...**"[49] و"**ألا تراهم يفرون إليها**"[50]. يقصد الألف والفتحة لخفتهما، و"**ألا تراهم أنهم لم يجيئوا بشيء من الثلاثة على مثال الخمسة نحو: ضرَبّبَ، ولم يجِئ فعلَّلَ ولا فُعَلَّل إلا قليلا**"[51]. و"**حدثنا بذلك عن العرب الخليل وأبو الخطاب. وحدثنا الخليل عن العرب بغير الإشمام وإجراء الساكن**"[52]، كل هذا يعني أنّ سيبويه له قدرة كبيرة على استقراء كلام العرب كما يؤديه أصحابه الناطقون به بتنوعاته الأدائية التي تفرضها البيئة الاجتماعية، وأعراف التداول. ومن ذلك قول سيبويه:"**وإنما خفت الألف هذه الخفة لأنّه ليس منها علاج على اللسان والشفة ولا تحرك أبدا، فإنما بمنزلة النَّفَسِ فمن ثم لم تثقل ثقل الواو عليهم ولا الياء...**"[53].

إنّ العرب يفرون إلى الخفة فرارا وينفرون من الثقل نفورا وفي ذلك مطلب استعمالي ونظر تداولي عميق للغة في علاقتها بالحياة وما تقتضيه من مستويات لغوية منطوقة أو ما تقتضيه من مشافهة "**والمشافهة لا تكون إلا بين اثنين**"[54]، فلا نتكلم إلا ويوجد متكلم ومخاطب أو مرسل ومرسل إليه يتخاطبان بسهولة ويسر، ويجري الحديث بينهما خفيفا لطيفا بعيدا عن الثقل والعسر.

ولذلك كان المتحدثون يتجنبون **التضعيف** إلا ما سمحت به الضرورة؛ لأنّه من الناحية الصوتية "**يثقل على ألسنتهم، وأنّ اختلاف الحروف أخف عليهم من أن يكون في موضع واحد، ألا تراهم أنّهم لم يجيئوا بشيء من الثلاثة على مثال الخمسة نحو: ضرَبَّبَ، ولم يجئ فعلَّل ولا فُعلَّل إلا قليلا، ولم يبنهنّ كراهية التضعيف**"[55].

إنّ كراهية التضعيف مرتبطة بكراهية الثقل من الناحية الصوتية، كما أنّ المشافهة تحكم ظواهر صوتية أخرى مثل: الإشباع والإخفاء والاختلاس "فأما الذين يشبعون فيمططون وعلامتها واو وياء، وهذا يحكمه لك المشافهة... وأما الذين لا يشبعون فيختلسون اختلاسا، وذلك قولك: يضربها ومن مأمنك يسرعون اللفظ ومن ثم قال أبو عمرو: فيبنون ولو كانت ساكنة لم تحقّق النون ولا يكون هذا في النصب لأنّ الفتح أخف عليهم[56].

يكثر الإشباع والإخفاء والاختلاس في الأداء القرآني وذلك مثل: "**أرنا مناسكنا**" البقرة (128)، وكذلك في: "**يأمرهم**" الأعراف (117)، وقال مكي المقرئ: "وعلة من أسكن أنه شبه حركات الإعراب بحركة البناء، فأسكن حركة الإعراب استخفافا لتوالي الحركات، تقول العرب: "أراك منتفْخاً يسكنون الفاء استخفافا.

والاختلاس شبيه بالإسكان لإضعافه الحركة وإن كان المختلس بزنة المتحرك[57].

إنّ ظاهرة الاختلاس كما يقول أستاذنا الفاضل الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح – للحركات ظاهرة عامة الوجود في اللغات البشرية نظرا لكونها عفوية لا تكلف فيها، واللغة الإنجليزية والفرنسية مليئة بهذه الظاهرة[58]. واختلاس الحركات – برأي الدكتور المكي درار – هو إزاحة سريعة للصائت بتنقيص مدّته وتغيير كميته بتقريبه من السكون، وليس للاختلاس علامة بصرية يعرف بها، كما أنّ تحديد كميته متفاوت فيها، والمرجح أنّه أصغر جزء صوتي من صائت قصير، ينطق به في الأداء[59].

لقد تحدّث سيبويه عن **الهمزة** مطولاً وهي صوت يخرج من أقصى الحلق شديدا اهتم به الشعراء وعلماء القراءات، إنّ الهمزة أثقل الحروف نطقا وأبعدها مخرجا تنوّع العرب في تحقيقه بأنواع التخفيف، وكانت قريش وأهل الحجاز أكثرهم تخفيفا برأي السيوطي[60].

كل هذا يبيّن أهمية الهمزة في الأنساق اللغوية المختلفة وتوظيفها؛ فقد تكون ساكنة أو مضمومة أو مكسورة أو مفتوحة بحسب الصوت الذي يسبقها، فلها إذا وضعيات متعدّدة في الكلام العربي بحسب مبانيه الإفرادية الصرفية والتركيبية النحوية والأسلوبية البلاغية(61).

يلاحظ القارئ في الكتاب أنّ سيبويه في دراسته للظواهر اللغوية ومنها الظواهر الصوتية لم يحكم بأنّ هذا صحيح وهذا خطأ وإنما قام بوصف الظواهر المدروسة وصفاً دقيقا له معالمه العلمية تجلى ذلك في لغة واصفة علمية دقيقة، من ذلك وصفه لمخارج الحروف؛ فبعد أن تحدّث عن **حروف العربية** التسعة والعشرين وهن **الحروف الأصول** كما سمّاها؛ أضاف إليهن **حروفا فروعا** أصلها من التسعة والعشرين "**وهي كثيرة يؤخذ بها وتحسن في قراءة القرآن والأشعار**"(62)

وتتمثل هذه الحروف في:

- النون الخفيفة.
- والهمزة التي بين بين.
- والألف التي تمال إمالة شديدة.
- والشين التي كالجيم.
- والصاد التي كالزاي.
- وألف التفخيم(63).

ثم راح بعد ذلك يتحدث عن مخارج الحروف بدقة متناهية موضحا إياها بأنها ستة عشرة مخرجا يشمل منها **حيز الحلق**(64) ثلاثة مخارج: من أقصى الحلق ومن وسط الحلق، ومن أدنى الحلق.

وكذلك أقصى اللسان وطرف اللسان ووسط اللسان وحافة اللسان وظهر اللسان، وأصول الثنايا وفويق الثنايا وأطراف الثنايا، وباطن الشفة السفلى وأطراف الثنايا ومن بين الشفتين(65).

وبعد أن تحدث سيبويه عن مخارج الحروف انتقل للحديث عن صفاتها؛ فقسمها إلى: **مجهورة ومهموسة**، ثم عدّدها وعرّفها مبيّناً الفرق بين المجهور والمهموس، فإذا أشبع الاعتماد في موضعه ومنع النفَسَ أن يجري معه حدث الجهر، وإذا أضعف الاعتماد في موضعه حتى جرى النفَس معه حدث الهمس(66).

وإذا كان الجهر والهمس صفتين أساسيتين فإن سيبويه تحدث أيضا عن الصفات الثانوية وهي: **الشديدة والرخوة والمتوسطة**. فالحرف الشديد هو الذي يمنع الصوت أن يجري فيه، وأما الرخوة فإن شئت أجريت فيها الصوت. وأما المتوسطة فبين الشديدة والرخوة، فالعين مثلا: ترديدية لشبهها بالحاء(67).

يرى الدكتور المكي درار "**أنّ سيبويه يفرق بين الصفات الأساسية والثانوية على أساس مراعاة النفَس والصوت؛ فالمجهور منع النَّفَس أن يجري معه، والشديد هو الذي يمنع الصوت أن يجري فيه، فالأساسي يمتنع معه والثانوي يمتنع فيه. والممتنع في الأساس هو النفَس والممتنع في الثانوي هو الصوت**"(68).

ولم ينس سيبويه أن يشير إلى نوع آخر من الصفات وهي **الصفات الفارقة**، من ذلك ما جاء في قوله:

"**ومنها المنحرف وهو حرف شديد يجري فيه الصوت لانحراف اللسان مع الصوت، ولم يعترض على الصوت كاعتراض الحروف الشديدة وهو اللام، وإن شئت مددت فيها الصوت وليس كالرخوة؛ لأنّ طرف اللسان لا يتحافى عن موضعه وليس يخرج الصوت من موضع اللام، ولكن من ناحيتي مستدق اللسان فوق ذلك**"(69).

وكذا الشأن **للصوت المكرر** "**وهو حرف شديد يجري فيه الصوت لتكريره وانحرافه إلى اللام، فتحافى للصوت كالرخوة ولو لم يكرر لم يجر الصوت فيه**"(70).

وكذا الشأن **للحروف المطبقة** وهي: الصاد، والضاد، والطاء، والظاء، وهذه الحروف الأربعة إذا وضعت لسانك في موضعهن انطبق لسانك من مواضعهن إلى ما حاذى الحنك الأعلى من اللسان ترفعه إلى الحنك(71).

وأما الحروف المنفتحة فكل ما سوى ذلك من الحروف لأن لا تُطْبق لشيء منهن لسانك ترفعه إلى الحنك الأعلى(72).

ومنها أيضا الحروف اللينة وهي: الواو والياء لأنّ مخرجهما يتسع لهواء الصوت أشد من اتساع غيرهما كقولك: **"وايْ، واو، وإن شئت أجريت الصوت ومددت، وأما الألف فهي حرف هاوٍ اتسع لهواء الصوت مخرجه أشد من اتساع مخرج الياء والواو؛ لأنّك قد تضم شفتيك في الواو وترفع قبل الحنك"**(73).

إنّ كل هذه التنوعات الصوتية مبنية في أساسها على مبدأين رئيسيين هما **الخفة والثقل** في إجراء الخطاب في واقع الاستعمال وكيفياته؛ فعلى المتكلم أن يعرف متى يجهر ومتى يهمس ومتى يرقق ومتى يفخم ومتى يُطْبِق ومتى ينفتح ويسترسل. ثم إنّ الحروف التي تخرج من أقصى الحلق ووسطه وأدناه توصف عادة، بالثقل أكثر من التي تخرج من حافة اللسان، أو كما قال سيبويه: "**وهي أخف لأنها من حافة اللسان**"(74) التي تختلف بدورها عن **حروف القلقلة** Sonorisation.

ذكر سيبويه مصطلح القلقلة قائلا: "**أنّ من الحروف حروفا مشربة ضغطت من مواضعها، فإذا وقفت خرج معها من الفم صويت ونبا اللسان عن موضعه وهي حروف القلقلة، وذلك: القاف والجيم والطاء والدال والباء والدليل على ذلك تقول: الحِذْقْ فلا تستطيع أن تقف إلا مع الصويت لشدة ضغط الحرف وبعض العرب أشدّ صوتاً كأنّهم الذين يرومون الحركة**"(75).

تعني القلقلة من الناحية المعجمية شدّة الصياح كما في لسان العرب لابن منظور(76). وقال الخليل قبل ابن منظور"**القلقلة شدة الصياح، وشدة الصوت، فكأنّ الصوت يشتد عند الوقف على القاف فسُمّيت لهذا المعنى وأُضيف إليها أخواتها لما فيهن من ذلك الصوت الزائد عن الوقف عليهن والقاف أبينها صوتاً في الوقف لقربها من الحلق في الاستعلاء**"(77).

إنّ هذا **الصويت** الذي يخرج مع الحروف المشربة لا هو حركة ولا هو حرف له وظيفة محدّدة وهي اللحاق بهذه الحروف ليتمكّن المتحدّث بهذه الحروف من الوقف؛ لأنّه يستحيل أن يحدث ذلك دونه، ولذلك قدم سيبويه دليلا يدعم رأيه قائلا: "**والدليل على ذلك أنك تقول: الحَذْقْ فلا تستطيع الوقوف على القاف إلا مع الصويت لشدة ضغط الحرف**"78. فتحدث القلقلة بشدة الضغط على الحرف في مخرجه؛ فيؤدي ذلك إلى حدوث صويت ليكتمل به النطق ويؤدي إلى تحريك الكلام.

تحدث القلقلة عند العلماء العرب القدامى باجتماع صفتين من صفات الحروف هما: "**الجهر والشدة**" فلا يُعد الحرف مقلقلا إلا إذا كان شديدا مجهوراً(79).

فالشدة تمنع الصوت أن يجري مع حروف القلقلة، **والجهر** يمنع النَّفَس أن يجري معه حال سكونها في الوقف.

يخرج مع هذه الحروف المشربة إذا تمّ الوقوف عندها **نحو النفخة** بصوت الصدر انسل آخره وقد فرّ من بين الثنايا؛ لأنه يجد منفذا فسمع نحو النفخة والظاء تجد المنفذ من بين الأضراس(80)، وهذا كله من أجل وصل الكلام بعضه ببعْض وجعله خفيفا على اللسان قليل الكلفة. وفي هذا بُعدٌ تداولي يُظهر ما للصوت من أثر في بناء الصيغ الصرفية والتركيبية والسياقية وما تحمله من دلالات متنوعة، وما لذلك من أهمية في تحقيق فصاحة الكلام وبلاغة الخطاب.

خاتمة:

يتبين لنا من كل ما تقدّم أن سيبويه، قد أسّس الكلام العربي على مبدأين اثنين هما: **الخفة والثقل**؛ فكلما كان الكلام خفيفاً مأنوساً لقي القبول والاستحسان وحقّق فائدته المرجوّة منه.

وقد اتسمت معالجة سيبويه للظواهر اللغوية والصوتية بِسِمَة النظر الابستمولوجي العميق المبني على الاستقراء والتتبع الدقيق للتنوعات اللهجية وكيفيات الأداء كما تبرزها البيئة اللغوية في واقعها الاستعمالي التداولي.

وإنّ كل هذا يبدأ من الظواهر الصوتية؛ إذ الصوت هو نبض النص، والمشافهة هي التي تَحكُم قواعد التلفّظ وكيفيات التخاطب والتواصل بين الناس.

لم ينظر سيبويه في كل ذلك إلى الصوت منعزلا عن سلسلته الكلامية؛ وإنما نظر إليه باعتباره وحدة وظيفية استعمالية حسب مقتضيات الخطاب وظروف التواصل.

لقد كان سيبويه – في هذا كله – إجرائيا تداوليا في تفسيره لكثير من المسائل اللغوية ضاربا الأمثلة الموضحة لها. لم يكن سيبويه في كثير من آرائه المتعلقة بالظواهر الصوتية بصفة خاصة واللغوية بصفة عامة بعيداً عن العلماء المحدثين في مجال الدراسات الصوتية – إذا استثنينا الجانب التقني المتعلق بالدراسات الصوتية في المخابر الصوتية الدقيقة. كما أنّ نظرته شاملة لمختلف الظواهر المتعلقة بالمشافهة والتخاطب المحققة لنفع المؤانسة بيسر الخطاب وخفته على اللسان وهنا تكمن أصالة سيبويه.

ويمكن في خاتمة هذه الدراسة أن نذهب إلى أنّ الخفة والثقل يمكن أن تكون نظرية قائمة بذاتها في اللغة العربية تحتاج في إظهارها إلى حدّة الذهن وقوة الخاطر.

هوامش الدراسة ومراجعها:

1– للمزيد من التفاصيل انظر د/ المكي درار – المجمل في المباحث الصوتية من الآثار العربية– دار الأديب للنشر والتوزيع، وهران، الجزائر، ط2، سنة 2004، ص9.

2– انظر – المرجع نفسه –، ص9.

3– الإدغام ظاهرة صوتية صرفية تحدث في الحرفين اللذين تضع لسانك لهما موضعا واحدا لا يزول عنه ويحدث فيهما إذا كانا منفصلين وفي الحروف المتقاربة التي هي من مخرج واحد. وفي حروف اللسان والثنايا. وقال سيبويه: "فأحسن ما يكون الإدغام

في الحرفين المتحركين اللذين هما سواء، إذا كانا منفصلين، أن تتوالى خمسة أحرف متحركة بهما فصاعدا..."انظر سيبويه – الكتاب –، الجزء 4، ص446.

4– د/ حافيظ إسماعيل علوي ود/محمد الملاخ – قضايا ابستمولوجية في اللسانيات – الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، ط ، 2009، ص47.

5– انظر – د/ إدريس مقبول، الأسس الابستمولوجية والتداولية للنظر النحوي عند سيبويه – عالم الكتاب الحديث، جدارا للكتاب العالمي، عمّان، الأردن، ط ، سنة 2007،ص166/ 167.

6– انظر – المرجع نفسه –، ص48.

7– سيبويه – الكتاب، تحقيق وشرح د/ عبد السلام هارون –، عالم الكتب دار الجيل، ط 3، سنة 1983، الجزء (1) ، ص20/ 21.

8– سيبويه، الجزء 4، ص 218.

9– د/ زكي نجيب محمود – المعقول واللامعقول في تراثنا الفكري –، دار الشروق، مصر، ط 3، سنة 1981، ص89.

10– د/ حافيظ إسماعيل علوي ود/ محمد الملاخ – قضايا ابستمولوجية في اللسانيات –، ص 49.

11- د/ عبد الرحمن الحاج صالح – السماع اللغوي العلمي عند العرب ومفهوم الفصاحة – منشورات المجمع اللغوي الجزائري، موفم للنشر، الجزائر، 2007، ط 1، 225.
12- انظر – دروس في علم أصوات اللغة العربية لجان كنتينو – ترجمة الدكتور صالح القرمادي، 1966، ص 148.
13- انظر – د/ أبوبكر حسيني، النظام التركيبي للحركات العربية/ دراسة صوتية في القراءات واللهجات –، مكتبة الآداب، القاهرة، سنة 2007، ص 42.
14- سيبويه – الكتاب –، الجزء 4، ص117.
15- المرجع نفسه، ص 118.
16- المرجع نفسه، الجزء 1، 262.
17- انظر د/ عبد الرحمن الحاج صالح – اللغة العربية بين المشافهة والتحرير، ضمن كتاب بحوث ودراسات في اللسانيات العربية – الجزء الأول، منشورات المجمع الجزائري للغة العربية، موفم للنشر والتوزيع، سنة 2007، ص64.
18- ابن منظور – لسان العرب- مادة (م. ث.ل)، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت للطباعة والنشر، سنة 1968م.
19- د/ عبد القادر عبد الجليل – الأصوات اللغوية –، دار صفاء للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط 1، 1998، ص283. نقلته عن الجيلالي بن يشو – مصطلحات المماثلة في الفكر الصوتي عند سيبويه – مجلة المجمع الجزائري للغة العربية – العدد الثاني، ديسمبر 2003، ص 206.
20- سيبويه – الكتاب –، الجزء 4، من الصفحة 117 إلى 130. وانظر د/ عبد الرحمن الحاج صالح – اللغة العربية بين المشافهة والتحرير –، مذكور سابقا، ص78.
21- انظر – المرجع نفسه – ص79/78.
22- انظر – المرجع نفسه – ص78.
23- الكتاب – الجزء 4- ص129/128.
24- انظر – أحمد فروخي، التجويد الواضح –، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط 2، الجزائر 1981، ص15.
25- الكتاب، الجزء 4، ص130.
26- الكتاب، الجزء 4، ص113.
27- انظر – د/ عبد الرحمن الحاج صالح – اللغة العربية بين المشافهة والتحرير –، مذكور سابقا، ص 75/74.
28- الكتاب، الجزء 4، ص115/114.
29- انظر – د/ عبد الرحمن الحاج صالح – المرجع المذكور سابقا- ص 76.
30- المرجع نفسه، ص.76
31- صار الاستعراض في إظهار الحركات الإعرابية والاهتمام بالإعراب وادعاء التحكم في العربية ومعرفة أسرارها الخفية من لدن بعض المتفيفهين. أشبه بالاستعراضات التي يقدّمها لاعبو رياضة الكاتش وإيهامهم المتفرجين بأنهم ملوك القوة والشجاعة. ولا يعني هذا أنني ضد ما يقتضيه المعيار اللغوي لأنه وسيلة أساسية في الحفاظ على نظام اللغة ولكن يجب أن نتنبّه إلى مقتضيات الاستعمال وبخاصة في الأداءات المنطوقة.
32- الكتاب، الجزء 4، ص154.
33- نقلته عن الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح – بحوث ودراسات في اللسانيات العربية – الجزء الثاني، ص 175.
34- الكتاب – الجزء 4، ص 156.
35- الكتاب – الجزء 4، 242/241.
36- د/ التواتي بن التواتي – الخليل بن أحمد الفراهيدي منظراً نحويا وعنايته بالقراءات وتوجيهها النحوي، مجلة المجمع الجزائري للغة العربية – عدد 2، سنة 2005، ص 15.
37- الرماني – شرح كتاب سيبويه – الجزء 4، ص 56، نقلته عن د/عبد الرحمن الحاج صالح – بحوث ودراسات في اللسانيات العربية – الجزء 2، ص64.

38- انظر – د/ عبد الرحمن الحاج صالح، المرجع نفسه – ص64.
39- الكتاب – الجزء 4، ص 242/241.
40- انظر – د/ عبد الرحمن الحاج صالح، بحوث ودراسات في اللسانيات العربية – الجزء الثاني، ص 65.
41- الكتاب، الجزء 4، ص 268.
42- انظر – السيوطي، الإتقان في علوم القرآن – الجزء الأول، ص 238، والنشر في القراءات العشر لابن الجزري، الجزء 2، ص 121، والتواتي بن التواتي – مذكور سابقا – ص 157/156.
43- الكتاب – الجزء 4 – ص169.
44- الكتاب – الجزء 4 – ص335.
45- انظر – د/طه عبد الرحمن، تجديد المنهج في تقويم التراث – المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان،ط 2، ص 284 وما بعدها.
46- انظر للمزيد من التفاصيل – فلوريان كولماس، دليل السوسيولسانيات، ترجمة د/ خالد الأشهب ود/ ماجدولين النبيهي – مركز دراسات الوحدة العربية، المؤسسة العربية للترجمة، ط 1، بيروت، سنة 2009، ص15/14.
47- الكتاب – الجزء 4 – ص113.
48- الكتاب – الجزء 4 – ص130/117، وانظر الحاج صالح – اللغة العربية بين المشافهة والتحرير – ص78.
49- انظر – د/عبد الرحمن الحاج صالح، اللغة العربية بين المشافهة والتحرير – ص79.
50- الكتاب – الجزء 4 – ص.335
51- الكتاب – الجزء 4 – ص417.
52- الكتاب – الجزء 4 – ص169.
53- الكتاب – الجزء 4 – ص336.
54- الكتاب – الجزء 1 – ص.392
55- الكتاب – الجزء 4 – ص417.
56- الكتاب – الجزء 4 – ص202.
57- انظر – د/عبدالرحمن الحاج صالح، بحوث ودراسات في اللسانيات – الجزء الأول، ص77.
58- انظر – المرجع نفسه– ص78.
59- انظر – د/ المكي درار، المجمل في المباحث الصوتية من الآثار العربية – دار الأديب للنشر والتوزيع، ط 2، سنة 2006، ص108.
60- انظر – المرجع نفسه – ص98.
61- انظر – المرجع نفسه – ص124.
62- الكتاب – الجزء 4 – ص431.
63- الكتاب – الجزء 4 – ص432.
64- الحيز: هو الموضع الذي تشترك فيه مجموعة من الحروف وتشمل مجموعة من المخارج كما هو الشأن لحيز الحلق الذي له ثلاثة مخارج وهي: أقصى الحلق، ووسط الحلق، وأدنى الحلق.
65- للمزيد من التفاصيل انظر – بشير إبرير، بنية الخطاب العلمي في كتاب سيبويه، مخارج الحروف عينة، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة بسكرة – العدد 7 سنة 2010، من الصفحة 11 إلى 20، فقد تم تحليل هذا النص "مخارج الحروف" من خلال بنيات ثلاث هي البنية التنظيمية والبنية التقنية والبنية اللسانية باعتباره نصا علميا.
66- الكتاب – الجزء 4 – ص434.
67- الكتاب – الجزء 4 – ص434.
68- د/ المكي درار – المجمل في المباحث الصوتية... – ص52/51.

69- الكتاب – الجزء 4 – ص435.

70- الكتاب – الجزء 4 – ص435.

71- الكتاب – الجزء 4 – ص436.

72- الكتاب – الجزء 4 – ص436.

73- الكتاب – الجزء 4 – ص436/435.

74- الكتاب – الجزء 4 – ص432.

75- الكتاب – الجزء 4 – ص179.

76- ابن منظور – لسان العرب – دار صادر، بيروت، 1956، الجزء 1، ص567/566.

77- الخليل بن أحمد – العين، تحقيق الدكتور عبد الله درويش – مطبعة العاني، سنة 1967، ص49.

وانظر – رضا زلاقي، صفة القلقلة وحروفها بين القدامى والمحدثين، مجلة اللسانيات – العددان 15/14، مركز البحث العلمي والتقني لتطوير اللغة العربية، سنة 2009/2008، ص38. والمقال مهم كله.

78- الكتاب – الجزء 4 – ص179.

79- انظر –رضا زلاقي، صفة القلقلة وحروفها ... مذكور سابقا – ص39.

80- الكتاب – الجزء 4 – ص175.

مراجع الدراسة:

1- أبوبكر حسيني – النظام التركيبي للحركات العربية دراسة صوتية في القراءات واللهجات – مكتبة الآداب، القاهرة، سنة 2007.

2- أحمد فروخي – التجريد الواضح – الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط 2، الجزائر 1981.

3- إدريس مقبول – الأسس الابستمولوجية والتداولية للنظر النحوي عند سيبويه – عالم الكتاب الحديث، جدارا للكتاب اللبناني، عمّان، الأردن، ط 1، سنة 2007.

4- بشير إبرير – بنية الخطاب العلمي في كتاب سيبويه، مخارج الحروف عينة – مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة بسكرة، العدد 7، سنة 2010.

5- التواتي بن التواتي – الخليل بن أحمد الفراهيدي منظراً نحويا وعنايته بالقراءات وتوجيهها النحوي، مجلة المجمع الجزائري للغة العربية – عدد 2، سنة 2005.

6- الجيلالي بن يشو – مصطلحات المماثلة في الفكر الصوتي عند سيبويه، مجلة المجمع الجزائري للغة العربية – العدد 2، ديسمبر 2003.

7- الخليل بن أحمد – العين، تحقيق الدكتور عبد الله درويش – مطبعة العاني، سنة 1967.

8- جان كانتينو – دروس في علم أصوات اللغة العربية – ترجمة صالح القرمادي، 1966.

9- حافيظ إسماعيل علوي وامحمد الملاخ – قضايا ابستمولوجية في اللسانيات – الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، ط 1، 2009.

10- رضا زلاقي – صفة القلقلة وحروفها بين القدامى والمحدثين، مجلة اللسانيات – العدد 15/14، مركز البحث العلمي والتقني لتطوير اللغة العربية – سنة 2009/2008.

11- زكي نجيب محمود – المعقول واللامعقول في تراثنا الفكري – دار الشروق، مصر، ط 3، سنة 1981.

12- طه عبد الرحمن – تجديد المنهج في تقويم التراث – المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط2.

13- سيبويه – الكتاب، تحقيق وشرح عبد السلام هارون – عالم الكتب، دار الجيل، سنة 1983.

14- المكي درار – المجمل في المباحث الصوتية من الآثار العربية – دار الأديب للنشر والتوزيع، وهران، الجزائر، ط2، 2004.

15- ابن منظور – لسان العرب – دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، سنة 1968.

16- عبد الرحمن الحاج صالح – بحوث ودراسات في اللسانيات العربية – الجزء الأول، منشورات المجمع الجزائري للغة العربية، موفم للنشر والتوزيع، سنة 2007.

17- عبد الرحمن الحاج صالح – بحوث ودراسات في اللسانيات العربية – الجزء الثاني، موفم للنشر والتوزيع، المجمع الجزائري للغة العربية، سنة 2007.

18- عبد الرحمن الحاج صالح – السماع اللغوي عند العرب ومفهوم الفصاحة – منشورات المجمع الجزائري للغة العربية، موفم للنشر والتوزيع، سنة 2007.

19- فلوريان كولماس – دليل السوسيولسانيات – ترجمة خالد الأشهب، وماجدولين النبيهي – مركز دراسات الوحدة العربية، المؤسسة العربية للترجمة – ط 1، بيروت، سنة 2009.